هل ينبغي إحراق كافكا؟

بديعة أمين

يصدر في الشهر القادم عن دار الآداب كتاب بعنوان « هل ينبغي إحراق كافكا؟ » للكاتبة العراقية المعروفة بديعة أمين تفنّد فيه بالدرس والتحليل والإستشهاد آراء الكتّاب الأجانب والعرب التي بذلوا فيها الجهد الكبير لإثبات أن فرانز كافكا كاتب صهيونيّ... وقد توصلت الكاتبة في دراستها العميقة المطولة إلى أن هذه المقولة بعيدة عن الصحّة، وأن صاحب « القلعة » لم يتبنّ في أي من كتاباته الدعوة الصهيونية، بل أن كثيراً من هذه الكتابات تحمل إتهاماً ودينونة للصهيونية.

وننشر فيما يلي فصلاً من هذا الكتاب يتناول بالتحليل قصة « الجحر » لكافكا والتي ترجمتها المؤلفة واثبتتها في آخر كتابها الهامّ.

الجحر

مثل أي عمل من أعمال كافكا. ظلت قصة « الجحر » موضع تفسيرات متباينة من قبل النقاد الذين تناولوها بالشرح والتحليل. وبالرغم من أن الموضوعات التي استخلصوها من هذه القصة القصيرة، والتفسيرات والإستنتاجات التي توصلوا إليها قد تكون متقاربة أو متماثلة في عمومياتها - وقد لا تكون، وما هذا إلا بالأمر الطبيعي بالنسبة لأدب كافكا. وإلا لما كان لأي ناقد من سبب يقدم له إغراءً كافياً ليضيع وقته في محاولة فك ما سبقه إليه آخرون من رموز هذا الكاتب - أقول، برغم تقارب أو تماثل تلك التفسيرات والاستنتاجات، أو عدهمه، فالذي يبدو لي أن هناك بعض الموضوعات التي طرحها كافكا في هذه القصة مما لا يزال بحاجة لأن ينال حظه من حسن او سوء فهم من يعنى بأدب كافكا.

لقد وجه النقاد الذين تناولوا هذه القصة بالدراسة والتحليل اهتمامهم الى المغزى الذي تنطوي عليه، او الى ما تمثله الرموز المطروحة فيها، وإلى البحث عن ماهية ذلك العدو الخفي الذي يبحث عنه كافكا أيضاً، ويحاول ان ينفيه، في آن واحد، في المحور الأساسي لهذه القصة: توفير جحر أمين. فتشارلز اوزبورن يقول لنا: « ان « الجحر » هي عمل من أعمال المرارة واليأس والتنديد بالنفس والتشاؤم والخوف، وهي على نحو ما نشرت ناقصة. والنسخة الكاملة تنتهي بانهيار الجحر وهزيمة شاغله من جراء احتلال العدو للجحر. والعدو - كما نعرف الآن وكما كان يعرفه كافكا في ذياك الوقت - هو الموت »[1].

ان التفسير الذي يطرحه اوزبورن هو تفسير عام ينطبق على اي عمل من أعمال كافكا. والمفاهيم التي يطرحها: المرارة.. اليأس.. التنديد بالنفس.. التشاؤم والخوف هي، في واقع الأمر، جزء لا يتجزأ من مفاهيم عدة اخرى وموضوعات فلسفية ورؤى تشكل نسيج مجمل اعمال هذا الكاتب: لحمةً وسدى، وتعكس نظرة كافكا وقناعاته بصدد الانسان وموقعه في الكون والمجتمع.

أما روجيه غارودي فيذهب الى ان عامل « العندية » والرغبة في التملك كانت الهوس الذي أغرق حيواننا الصغير في متاهة الأوهام التي عطلت الواقع المادي الفعلي؛ وان « البناء

النظري الهش، المنطوي على «العندية» حتى لو كانت هذه «العندية» ذهنية بحتة، ليس سوى دفاع ضعيف ضد الحياة». فالقلق ظل قائماً، بل وأصبح اكثر شدة، بعد أن اصبح الحيوان من صنف الذين يملكون. لا بل، أكثر من هذا أنه هو نفسه، أصبح، على خلاف ما كان يعتقد، اكثر ضعفاً مما كان عليه قبل ذلك، إذ أن هشاشة الجحر، جعلته هو نفسه، اكثر حساسية وهشاشة»[٢].

ويطرح غارودي موضوعة هامة أخرى مستمدة من احساس الحيوان بالغربة عما انجزته يداه ورأسه الصغير، بقدر ما هي مستمدة من الواقع الحي القائم لانساننا المعاصر؛ تلك هي انه «من فرط حرص الإنسان على اعداد مسكن له فانه يختلط هو نفسه بالنظام الذي أقامه ومع النظريات التي يجهزها لكي يسد بها الشقوق التي تفتحها الحياة في افكاره. وهكذا تكون الغربة شاملة.»[٣]

ومع ان النتائج التي يتوصل اليها غارودي تشكل جزءاً من الموضوعة الأساسية الظاهرة التي تتنافى بنيتها وتتوضح أبعادها من التقاء موضوعات ثانوية أخرى تكشف عن نفسها في مجرى الحدث الاساسي العام: تأمين مأوى يوفر الأمن والسلام والطمأنينة والمتعة لحيواننا المذعور أبداً، وما يترتب على ذلك، وبرغم ذلك، من انعدام المنعة؛ وخوف وقلق مستديمين يسكنان رأس مالك الجحر، تظل هناك موضوعة لا تقل اهمية، عما طرحه كل من اوزبورن وغارودي، تلك هي: تلك المعادلة المقلقة المتجسدة بثنائيه «الحقيقة - الوهم» - حيث تستحيل الحقيقة القائمة هشيماً يتساقط نثاره في مهاوي الوهم. وهذا ما سأعود اليه فيما بعد.

من التفسيرات الهامة التي طرحت بصدد الجحر والتي يهمني جداً ان أخصها بموضع متميز - تفسير ماكس برود. وهذه الاهمية التي أمنحها لما توصل اليه - أو ربما ما أراد ان يوصله لذهن القارئ وربما للنقاد أيضاً - تنطلق من حقيقة اساسية هامة هي ان ماكس برود صهيوني. وتبعاً لذلك، فهي تنطلق، بالضرورة، من واقع ان كل ما يقوله برود في شرح مؤلفات كافكا، ومحاولة تفسير رموزه، يخدم بالضرورة تطلعاته وعواطفه الصهيونية. وماكس برود لا يتردد في ان يفسر كافكا طبقاً لفكره المتحيّز هو ومن حيث تنبع عواطفه والى حيث تتجه. ولا شيء يمكن ان يحول بينه وبين ذلك حتى حينما لا يكون واثقاً هو نفسه مما يريد قوله، فيضع، في حالة كهذه، ما يريد قوله تحت ستار واهٍ - وان كان واضحاً بدرجة كافية - من شأنه ان يعلق مسؤولة تفسيراته الذاتية برقبة كافكا. وهذا المسلك لا يغيب حتى عن انظار بعض النقاد والكتاب الغربيين الذين كان بعضهم قد تأثر، لهذا الحد أو ذاك، ببعض تفسيرات ماكس برود. اوزبورن مثلاً يقول: «ولقد كتب ماكس برود تعليقاً عليها [الجحر]:

«... على القارىء ان ينتبه الى الفقرة الهامة التي عندما يرفع المؤلف - وهو الحريص على تجنب أية عبارة مجردة - القناع قليلاً ويشير الى ان الجحر تعني بالنسبة له شيئاً اكثر من مجرد الأمان: انها تعني وطناً وحياة قائمين على العمل الأمين - بالاختصار، هي تعني الاشياء نفسها التي بحث عنها مساح الاراضي. في رواية (القلعة) وكفى عبثاً.»[٤] ولا بد ان نتذكر هنا ان ماكس برود يصر على اعتبارموظف المساحة في «القلعة» رمزاً يهودياً، بالرغم من ان كافكا لا يقول ذلك أبداً، ولا يشير، صراحة او تلميحاً، الى ما يفهم منه على انه كذلك. ويعقب تشارلز اوزبورن على قول ماكس هذا بقوله: «هذه الملاحظة الحميدة تشير الى موقف برود العام تجاه كافكا وتشير الى الطبيعة القلقة الغالبة لتفسيره للمؤلف.»[٥]

وبرغم القلق الواضح والتردد الذي يبدو خفياً اكثر من كونه معلناً، والذي يبطن تعليق ماكس برود على قصة الجحر، حيث انه لا توجد في القصة اية اشارة، صريحة، نصف صريحة او حتى خفية توحي للقارىء بان الجحر يعني بالنسبة له «وطناً وحياة قائمين على العمل الأمين ...» - أقول، بالرغم من هذا القلق والتردد، فالشيء الواضح والاكيد، هو ان برود أراد بأي ثمن - حتى وان كان ذلك الثمن استحياءً مفتعلاً - ان يجعل القارىء يظن ان المطلوب منه ان يفهم «الجحر» على انه «وطن» يوفر عملاً أميناً. وعلى أية حال، وطالما كانت تلك رغبة ماكس برود، فانني لن أُخيب أمله. وانما سأنطلق في معالجتي «للجحر» وأنا اضع في ذهني ما يريد لها ان تعنيه: «وطناً وحياة قائمين على العمل الأمين». ليس هذا حسب. وانما سيهمني اكثر ان اعلن هنا، بانني - لأغراض المناقشة - موافقة تماماً على تفسيره هذا أيضاً؛ بل وطبقاً لفهمه لهذين المفهومين: الوطن والعمل - وهو بطبيعة الحال فهم صهيوني، يقوم بشكل جوهري على اساس وجود ترابط عضوي بينهما. ولذا فانني اعتقد ان من الضروري ان اقف قليلاً - قبل مواصلة الغور في دهاليز وانفاق جحر كافكا - عند المفهوم الصهيوني للعمل، والذي يطرحه ماكس برود على انه واحد مما كان يجنيه كافكا في هذه القصة. اما بالنسبة «للوطن» بمفهومه الصهيوني، فلا اعتقد ان هناك ضرورة للوقوف عنده، حيث انه مطروح بشكل دائم تقريباً في الساحة الفكرية، ولا اظن ان هناك ما يبرر تكرار قضايا معروفة.

ان «العمل» هو واحد من اهم المفاهيم التي تحاول الصهيونية ان تستنبتها في أعماق الذات اليهودية. وليس المقصود بالعمل بالطبع، اي نشاط كان لا تحديد معين له. فاليهود، وهذا حق يقال، كانوا دوماً وفي كل المجتمعات التي يحلون فيها منذ فجر التاريخ، يمارسون واحداً من اهم مجالات النشاط الإنساني: العمل في المجال المالي - التجاري. وهذا كما هو معروف، عمل لا ترابط بينه وبين الارض التي يمارس فوقها.. انه عمل يطفو

بعيداً عن سطح الأرض.. بلا امتدادات نوعية تشد ما بين الذي يمارسه وبين الأرض التي يقف عليها. والمرء يستطيع ان يمارسه حيثما انتقل وربما بشكل مُجزٍ بدرجة اكبر- انه ببساطة، عمل ذو طبيعة «كوزمو بوليتانية».. وبمقدور المرء ان يكون في موقع ما، فيما يتحرك نشاطه المالي في موقع آخر او مواقع أخرى في الوقت عينه. وهو بعد كل شيء عمل غير منتج لثروات مادية يرتكز انتاجها الى ما تخرجه الأرض من مواد خام، زراعية او منجمية، وانما يستند الى النقود ليأتي بمزيد منها.

اما المقصود بالعمل طبقاً للمفهوم الصهيوني، فعمل منتج، وقبل كل شيء، بل وأهم من كل شيء، عمل يتعلق اساساً بالأرض- بتحديد اكثر دقة: الزراعة. فبدون عمل زراعي يغدو من الصعب ان يمد الإنسان له جذوراً في الأرض التي يعيش فوقها. انه يظل عنصراً طافياً لا جذور له، تقيم بينه وبين تلك الأرض رباطاً عضوياً وثيقاً يزداد قوة وصلابة مع مر السنين حتى يغدو أقوى رابطة من الدم الى حد انه يستطيع ان يقدم حياته فداء لها.. ومن هنا كان أول ما أرادت الصهيونية ان تحققه في ارض فلسطين اقامة «مزارع يهودية». لقد كان هدفها الأول ان تحول الإنسان اليهودي من بائع متجول.. من تاجر صغير يمتلك سفينة صغيرة تنتقل به ما بين شطئان البحار والقارات.. من مرابٍ صغير.. الى «فلاح» يمتد له مع كل بذرة يبذرها في الأرض، جذر صغير.. حتى اذا تكاثرت الجذور.. وتصلبت، صار من الصعب عليه ان يرحل الى اشور جديدة او بابل او الإسكندرية، او ايما بلد من بلدان عالمنا الوسيع ليبيع فيها ما يصنع مما تخرجه ارض الآخرين بعرق الآخرين، او ان يبتاع منضدة خشبية صغيرة يعرض فيها «نقوداً للبيع»، ليأتي في يوم من الايام، «مسيح» يركلها بقدمه.. ولصار من الصعب عليه ايضاً ان تخيط له زوجته كيساً جديداً يكدس فيه الحرير والحلوى والدمى واشياء صغيرة اخرى يضعها فوق منكبيه ويتجول في الازقة والدروب الضيقة بحثاً عمن له بما لديه حاجة.. ولا عاد بمقدوره ان يؤجر سفينة لتاجر صغير فتغرق فيطالب مستأجرها برطل لحم يقتطع من موضع القلب فيلهب بطلبه هذا غضب الآخرين وحقدهم عليه.

ليس هذا هو المغزى الوحيد الذي يحمله مفهوم «العمل» الصهيوني: وضع حد مرة وإلى الأبد لكل هذا التاريخ الذي مضى وتوجيه جموع اليهود نحو عمل منتج يرتبط بصورة جوهرية بالأرض قبل اي شيء آخر، وانما هو واحد من المعاني التي يحتويها. لكني سأكتفي بهذه الوقفة القصيرة عند هذا المغزى من حيث انه يتعلق باغراض هذا البحث.

لنعد الآن الى «الجحر» التي كتبها كافكا في الشهور الأخيرة من حياته:

الحيوان الصغير يبحث عن مأوى يقيه شر العدو ويمنحه الطمأنينه والسلام والمنعة والقوة. ويبني له جحراً.. يحفر فيه ممرات ودهاليز وحُجراً صغيرة متباعدة.. الى جانب حُجرة رئيسة تقوم مقام قلعة الطعام الرئيسة. ويغطي المدخل الحقيقي للجحر بكومة من الطحلب، لتضليل الاعداء ويملأ جحره بالطعام. وبعد ان ينتهي من بناء قلعته الحصينة يظل مشغولاً بخططه واجراءاته الدفاعية.. يراقب المدخل.. يفتش الحجرات والممرات.. يتفقد مخزونه من المؤونة ويعيد توزيعها في الحجرات الصغيرة، ليعيده بعد ذلك الى القلعة الرئيسة وهكذا.. وبرغم ان حيواننا المسكين كان بارعاً في تنفيذ مشروعه وبنائه بحذق كلي، الا أنه يظل غريق تصوراته وبحثه المستمر عن العدو الذي يتربص به شراً والذي قد يهاجمه، في أية لحظة، من حيث لا يتوقع.

ان كافكا يطرح موضوع القصة الاساسي بوضوح كلي: البحث عن مأوى يوفر الحماية للحيوان الصغير الذي يجسد، برغم حيوانيته، كل خصائص ونوازع وصفات وتطلعات ومخاوف وقلق الإنسان. ومن هنا، فالحيوان الذي لا يتيح لنا الكاتب ان نتعرف على جنسه ونوعه وفصيلته، انما هو رمز للإنسان وسط عالم تكتنفه المخاوف والرعب والأذى من كل جانب، تسببه قوى مجهولة لأسباب لا أحد يعرفها.. عالم مليء باعداء مجهولين لا يتخلص المرء من احدهم الا ليقع بين فكي آخر[٦] لكن كافكا، ومنذ البداية تماماً، ينسج بهدوء ثلجي، خيوط وهم غير مرئية مع وحول كل ما يطرحه من قضايا. انه يناقش تلك القضايا من كل جانب واضعاً في حسابه كل الاحتمالات الممكنة وغير الممكنة.. حتى اذا بلغ غاية ما يريد، وبدت خيوط الوهم الملازمة لكل حالة من الحالات، وكأنها استحالت بسحر ساحر نفياً أبدياً، وبدا لنا الامر الذي يحاوره كافكا ويداوره، موثوقاً واكيداً مثلما الشمس اكيدة في منتصف يوم صيفي استوائي، تهاوى كل شيء فجأة.. واذا بكل شيء في القصة.. كل شيء يطرح على انه حقيقة مادية، او على انه مدركات ذهنية واضحة، يغدو كياناً هلامياً يتأرجح باديء ذي بدء في الأرض الحرام ما بين الحقيقة والوهم- الوهم الذي سرعان ما تشرع المسافة الممتدة بينه وبين ما يبدو حقيقة قائمة، بالتقلص والانكماش، شيئاً فشيئاً حتى بتلك الحقيقة تفقد في نهاية الأمر، مالها من حدود مادية او أبعاد مدركة ذهنياً، لتتحرك أخيراً بهدوء صامت نحو تخوم الوهم، حيث تستقر، في نهاية المطاف، بلا شيئية مذهلة في اعماق ذلك الوهم الذي يظل، هو وحده، الحقيقة الوحيدة التي لا ينالها شك.

إن الحيوان الصغير يشرع ببناء قلعته في باطن الأرض منذ ان كان طفلاً. ويستمر في عمله ذاك حتى يصل سن الكهولة، خوفاً من الأعداء. وهو لشدة حرصه على ان يكون مأواه حصيناً، يمنح لكل الاحتمالات السيئة امكانية الوقوع. فقد غطى المدخل الحقيقي للجحر بطبقة سهلة التحريك من الطحلب.

« ... وهو مؤمن بشكل سليم مثلما يمكن لأي شيء في هذا العالم ان يكون مؤمناً... » (ص/٣٢٥). وحيواننا الصغير مثله مثل موظف محطة القطار في القصة الروسية التي يرد مخططها في اليوميات، في سلوكيته. فهذا أيضاً يخفي البرافين في برميل بيرة صغير في حفرة يحفرها في ارض كوخه، ثم يغطيها بطبقة من القش.. حتى إذا جاء الشتاء الروسي الثلجي كان لديه شيء من الوقود [٧].. لكن المخاوف تنتابه فيدفن البرميل في حفرة جديدة خارج الكوخ.. وهكذا حيواننا الصغير.. تظل المخاوف تشغل باله هو أيضاً: « ... ان أحداً ما قد يطأ الطحلب او يخترقه، وعندها سينكشف جحري. ان اي فرد يستطيع لو أراد، ان يشق طريقه الى الداخل ويدمر كل شيء كلياً. على انه يرجى ان نلاحظ ان ذلك سيتطلب قدرات غير اعتيادية. » (٣٢٥). وعليه لا بد ان يفكر الحيوان بوجود مخرج خالٍ من اية عقبات يستطيع ان يصل اليه بسهولة خلال لحظات ان هو تعرض لهجوم مفاجيء ومن جهة غير متوقعة، كي لا يجد نفسه وقد انقضت على جنبه أنياب عدو يلاحقه، او حيوان يحفر في الأرض بهدف او بغير ما هدف. وحيواننا لا يتحدث بلهجة الواثق عن الاعداء الخارجيين الذين يهددون وجوده حسب، « فهناك أيضاً اعداء في جوف الأرض. » (٣٢٦). وبرغم ما هناك من استخدامات وصفية بالغة الدقة وتعابير حسية واحداث يندر ان تملك القدرة على الإبتعاد قيد أنملة عن أرض الواقع الصلدة، وذلك بسبب ما تحفل به من تفاصيل يهدف الكاتب من وراء استخدامها الى اكساب تلك الأحداث ابعاداً حقيقية تنبض بالحياة، فإن كافكا لا يتردد لحظة واحدة عن ان يقود القارئ - برغم كل واقعية اسلوبه - الى عالم الشك والأوهام. فبعد ان يحدثنا عن الأعداء الخارجيين الذين قد يداهمون جحره، وعن ضرورة ان يكون هناك مخرج يتيح له الهرب سريعاً دونما عائق، لو تعرض لهجوم غير متوقع، يعود فيخرجنا قائلاً: « انني لست مهدداً من قبل الأعداء الخارجيين فقط. فهناك أعداء في جوف الأرض أيضاً. انني لم أرهم قط، غير ان الاساطير تتحدث عنهم، وانا أومن بها بقوة. انهم مخلوقات الأرض الباطنية، وحتى الأساطير لا تستطيع ان تصفهم. وان ضحاياهم بالذات نادراً ما يستطيعون رؤيتهم. انهم يأتون، تُسمع خربشات مخالبهم تحتك تماماً داخل الأرض، التي هي عنصرهم، وإذا بك قد ضعت. » (٣٢٧). ومع ان كافكا يلغي، بحديثه عن الأساطير، وجود اولئك الأعداء الداخليين، إلا انه يتوصل إلى نتيجة هامة تقوم على ذلك الوجود الملغي. تلك هي ان البيت الذي شرع ببنائه منذ ان كان طفلاً وأضاع العمر في بنائه ليس بيته او « وطنه » لو اجزت لنفسي استعارة هذه المفردة من قاموس ماكس برود. فطالما كان الأعداء الداخليون يسكنون باطن الأرض، « لا طائل هناك من ان تعزي نفسك بفكرة انك تعيش في بيتك؛ انك بالاحرى في بيتهم. » (٣٢٧) ولا تقف المأساة عند هذا الحد. بل انها سترافقه حتى إذا قيض له ان يخرج من الجحر: « حتى خروجي لن ينقذني... في أية حالة، بل أنه سيفضحني، ومع ذلك فإنه أمل لا استطيع العيش بدونه. » (٣٢٧) ويكشف لنا مالك الجحر ان هناك ممرات أخرى تربطه بالعالم الخارجي.. لكنها ضيقة.. إلا أنها مأمونة وهي تستطيع ان تمده بهواء نقي.. بل وتجلب له صيداً داخلياً.. حيث « ان كل أنواع الدبيب الصغيرة أيضاً تأتي راكضة عبرها فألتهمها، وهكذا يمكن ان يكون لدي قدر معين من الصيد تحت الأرض، وهو كاف لأسلوب حياة متواضعة ... » (٣٢٧) هنا نستطيع ان نجد اصداء لمشروع كافكا التعاوني « جمعية العمال غير المالكين »، حيث ينص الجزء الخاص بالواجبات على ان يكون للمرء ما يكفيه من الطعام (س/٨٤) وان يحصل على ما يبقيه حياً من خلال العمل. (س/٨٥) وان كان حيواننا الصغير يحصل على قوته عن طريق القنص.

ومع ان حيواننا البائس يستطيع ان يضع لحياته خططاً تقوم على نمط من التقشف داخل جحره، فان الحياة، كما يبدو، لا تستطيع ان تدعه يعيش بسلام حتى إذا ما فكر انه قد يضطر إلى ان يحيا حياة تقشف.. فانه لا يستطيع ان يحمل رأسه الصغير على ان يكف عن التفكير ثانية بالأعداء الخارجيين: « الأعداء كثيرون وحلفاؤهم وشركاؤهم اكثر عدداً... » (٣٣٧). ويحاول الحيوان البائس ان يجد عزاءه في ان يتصور « انهم يحاربون بعضهم البعض، وفيما هم منهمكون بذلك، فإنهم يندفعون بمحاذاة جحري دون ان يلاحظوه. » (٣٣٧). غير انه برغم لهجة الثقة التي يتحدث بها مالك الجحر عن الأعداء الخارجيين وأنشغالهم بخصوماتهم الصغيرة، فإننا نراه يعود لمراجعة نفسة والتفكير في ما إذا كان ذلك أمراً حقيقياً. وهكذا يشرع بنسج خيوط الوهم.. انه ينقلنا أولاً من مسألة وجود الأعداء كحقيقة قائمة فعلاً لا ينالها شك.. ثم يخطو بنا خطوة تبتعد قليلاً عن هذه الحقيقة.. وذلك بالتصور بأنهم منشغلون عنه بخصوماتهم الصغيرة.. حيث يمرون بمحاذاة جحره دون ان يلاحظوه.. وبذلك تبدأ صفة العداء التي تَسِمُ تلك العلاقة المفترضة بينه وبينهم بميسمها، بالاهتزاز.. لكن الامر لا يقف عند هذا الحد. فبعد ان يصل بنا الى هذه المرحلة، يمضي بنا خطوة أخرى حتى نصل حدود الشك بوجود اعداء حقيقيين عبر انتقالة ثانية لا تكتفي بان تعرض ذلك الإحساس بوجود الأعداء الى الاهتزاز حسب، وانما تذهب الى مدى تمزيق ذلك الإحساس حين تزيح النقاب عن حقيقة مغايرة. فمالك الجحر لا يتذكر انه رأى اي اعداء يتحرون باب جحره: « في كل حياتي لم أرَ أبداً اي واحد يتفحص الباب الحقيقي لبيتي، لحسن حظ كل منا: حظه وحظي أنا » (٣٣٧). الا انه لا يستطيع مع ذلك ان يوقف سيل تصوراته التي تظل تتدفق كتيار لا يصده عائق.. ويروح يحدثنا ماذا كان سيفعل لو أنه كان قد رأى اي عدو يبحث عن باب جحره: « انني كنت بالتأكيد سأهجم على

حنجرته ناسياً، في خضم قلقي على الجحر، كل شيء آخر. » (٣٣٧). ومع ان حيواننا المسكين يعلن دونما مواربة انه لم يَرَ في كل حياته أحداً يتفحص باب الجحر، إلا انه لا يستطيع الخلاص من كماشة القلق والخوف التي تسد عليه كل منافذ الأماني الجميلة.. فينتقل بنا من جديد من عالم التصور إلى عالم حقيقة أخرى حيث يحذرنا من مغبة الاعتقاد بان الخطر محض خيال « انه حقيقي جداً » (٣٤٠). وليس مهماً بعد ذلك ان تكون قد ارتكبت جريمة كبيرة او إثماً عظيماً او أي ذنب يمكن ان يجعل الأرض تنفطر عن اعداء لك لا عدد لهم.. فالخطر قائم أبداً.. وليس من الضروري ان يكون العدو عدواً معيناً حرضه آخر ليلاحقني.. انه قد يكون تماماً مخلوقاً بريئاً صغيراً جاءت به الصدفة، حيواناً صغيراً مثيراً للإشمئزاز يتبعني بدافع الفضول، فيكون بذلك، ودون ان يدري، قائد العالم ضدي.. (٣٤٠). وهكذا يضعنا كافكا أمام حقيقة تنضح ألماً ومرارة.. فانت قد تكون بريئاً.. والآخر يمكن أيضاً ان يكون بريئاً.. وانت لا تعرفه وهو لا يعرفك أيضاً.. بل قد لا يشعر أحدكما بوجود الآخر.. الا انكما تجدان نفسيكما وقد وضعتما في موضع تغدوان فيه عدوين دون ان تعرفا سبباً لذلك.

ولا تقف الصور التي تسوح في مخيلة مالك الجحر عند هذا الحد لتمنح العدو وجوداً حقيقياً. انه يطلق العنان لمزيد من تصورات سيكون لها اهمية خاصة حين يقودني البحث إلى استخلاص بعض النتائج. فالعدو قد لا يكون قائد العالم ضد الحيوان البائس حسب، وإنما « قد يكون - وهذا ما سيكون سيئاً بالقدر نفسه، بل وفي بعض الأحيان يكون اسوأ في واقع الأمر، - قد يكون واحداً من جنسي انا، او خبيراً ومخمن جحور، او ناسكاً او محب سلام، إلا انه مع ذلك، وغد قذر، يريد ان يسكن بيتاً لم يبنه. » (٣٤٠). وهكذا.. لا يظل العدو مجرد عدو قد ينظر اليه أحياناً، ولعدد من الأسباب والمبررات على انه عدو شريف، وانما يغدو وغداً وقذراً أيضاً. ان كافكا يرفض هنا صراحة، ودونما لف او دوران، ما تقره التوراة وتعتبره اسلوباً صحيحاً وسليماً في العلاقات الإنسانية طالما كان فيه ما ينفع ابناء إسرائيل، ذلكم هو شرعية استيلائهم على مدن الآخرين وبيوتهم وزروعهم، إذ يقول الرب لأبناء إسرائيل: « واعطيتكم أرضاً لم تتعبوا عليها ومدناً لم تبنوها وتسكنون بها ومن كروم وزيتون لم تغرسوها تأكلون. » [يشوع/٢٤: ١٣].

إن حيواننا الصغير الذي اصبح مالكاً شرعياً حقق أخيراً واحداً من الأهداف التي كان يناضل من اجلها مسّاح القرية السيد ك. (في القلعة) - طبقاً لماكس برود بالطبع - اي انه حقق كينونته في موقع أمين او بالاحرى في « وطن » - ومرة أخرى طبقاً لتعبير ماكس برود أيضاً.. وطن يوفر له العمل والرزق والطمأنينة والسلام، وينقذه من التجول في أرض الله الوسيعة. عندها.. وبعد ان نال الوطن والعمل، وصار حيواننا يحس بلحظات من سعادة حقيقية.. يتجول في ممرات ودهاليز وطنه الجديد: « أخيراً استطيع ان أجرؤ على ان استريح » (٣٤٨).. ويحل في هذه الحجرة او تلك.. ويتكرر في هذا الممر او ذاك.. ويترك للروائح المنبعثة من صيد ومخزون طعامه ان تتسلل إلى اعماقه فيندفع إلى الطعام يلتهم منه بغبطة ما يشاء. ليس هذا فحسب.. إذ ان اعماله الجديدة في الجحر والتي نشأت إثر عودته إليه بعد ان كان قد تركه فترة خوفاً من الأعداء الداخليين الذين تتحدث عنهم الأساطير، والتي كانت تتطلبها ضرورة ان تكون تدابيره الدفاعية منيعة بدرجة كافية؛ وجولاته التفتيشية للإطمئنان على ان كل شيء على ما يرام.. وان أية تغييرات لم تطرأ في حضنه بتأثير من حفريات أخرى قد تقوم بها حيوانات أخرى - اعماله الجديدة تلك تملأه سعادة وهو لا يتمنى ان تنتهي. « فالعمل سيكون بالنسبة لي مجرد لعب » (٣٥٩). ولذا.. « فانني اتلاعب بهمتي واطيلها وابتسم لنفسي واهنئ نفسي واصبح مبهوراً تماماً من جراء العمل الذي ينتظرني، غير انني لا أفكر اطلاقاً بأن أصدّ عنه. » (٣٤٨).

ومرة أخرى يذكرنا الحيوان الصغير في حبه للعمل بموظف المحطة في القصة الروسية، الذي كان هو الآخر يحاول دوماً ان يطيل عمله ويوسع مداه، ولا يقصر نشاطه على ما كان يطلب منه رسمياً. فمثلاً، بدلاً من تنظيف السكة لمسافة كيلومتر واحد من كل جهة، ابتداء من كوخه، كان في الأيام المشرقة ينطف مسافة تمتد الى خمسة كيلومترات من كل جهة. وكلاهما، موظف المحطة والحيوان الصغير، يعبران في هذا عن موقف مبدئي ازاء العمل الذي يستطيع الإنسان بواسطته ان يحقق ذاته.. وهذا ما يفصح عنه جوزيف ك. بطل « القضية » الذي ينظر هو الآخر نظرة ملؤها الرغبة في بلوغ الغايات النهائية في كل ما يفعل: « ... ما ينبغي ان يقف المرء في منتصف الطريق، فهذا هو الحمق بعينه، لا في الاعمال التجارية فحسب، بل في كل الأمور. »[٨]

حيواننا المذعور أبداً.. القلق أبداً الذي ينبض هاجس الشؤم مع كل دفقة دم تندفع من قلبه، يعيش هذه اللحظات السماوية لأنه وهو « في جحره يمتلك دوماً وقتاً لا نهائياً - [ولأن] كل شي يفعله هناك قيّم ومهم ومُرض لمدى معين... » (٣٤٨). وهو غير مضطر لأن يبدد من وقته ما بين ست أو ثماني ساعات عبثاً في عمل عقيم في مؤسسة للتأمين مثلاً.. حيث لا علاقة هناك بين عمله اليومي وبين ما يطمح فيه، كما الامر مثلاً بالنسبة لكافكا. واذن.. فان العمل الذي ينجزه مالك الجحر بدافع ذاتي.. هو السعادة بعينها. وبطل قصتنا، الحيوان الخائف ابداً، يشبه في هذا مؤلف القصة تماماً.. فكلاهما يحس بالسعادة التي يخلقها العمل.. بل ان الكاتب لا يدعنا نشك أبداً في انه يسكب في شخص حيوانه المنهمك أبداً بالبحث دوماً في الأعماق البعيدة، ما يعتمل في نفسه هو من احاسيس فرح مميت يمنحه اياه العمل والكفاح. فالإنسان بالنسبة له، يعني ببساطة عملاً

وكفاحاً «الكفاح يملأني سعادة تفوق قدرتي على الاستمتاع وقدرتي على المنح. ويبدو لي اني لن اسقط في النهاية تحت وطأة الكفاح بل تحت وطأة الفرح»[٩]

ولكن.. هل استطاعت كل هذه السعادة الغامرة..كل هذا العمل المفرح ان يسكت نبض الخوف المتردد في اعماقه بإيقاع ثابت.. هل استطاع الجحر ان يوفر له أمناً حقيقياً وسلاماً ابدياً... هل ان الجحر منيع لدرجة تنقذه من القلق المعذب.. أيمكن حقاً ان يجد خلاصه في الجحر من الأعداء ؟

لقد اكتشف بطلنا الصغير ان الجحر الذي شاده بشق النفس وبعد عناء طويل - اكتشف ان جحره هذا الذي ظنه يوماً «قمة كل الجحور» (٣٣٣) لم يكن في الواقع غير عمل مهلهل من اعمال الشعوذة، وان من الصعب ان يصمد امام اي هجوم جدي، او امام صراع عدو يناضل من اجل حياته.» (٣٣٣) وهنا يتعين علينا ان نتذكر ان من غير الممكن ان نمر بعبارة «عمل مهلهل من أعمال الشعوذة» دون ان نمنحها ما تستحق من اهتمام ما دمنا قد منحنا تفسير ماكس برود للجحر، ما يستحقه من اهتمام. «فالوطن» الذي يتحدث عنه ماكس، يطرحه كافكا هنا على انه عمل من اعمال الشعوذة. لكن علينا ان ننصف كافكا فنتذكر أيضاً انه لم يكن يتحدث بأي حال، عن «وطن» وانما عن مجرد جحر. لنمض اذن في سبر اغوار هذا الجحر. لقد ألحق الحيوان الصغير بعض العيوب بجحره. لكن هذه العيوب، على خلاف العيوب التي تسببها الطبيعة، تملأه اسى معذباً. فالعيوب التي يخلفها الإنسان اشد إيلاماً من العيوب الطبيعية او الولادة. والمرارة التي يحسها ازاء الاولى لا تعادلها أبداً مرارة ان يكون قد فقد بفعل الطبيعة، شفته العيا، او احدى اذنيه، او واحداً من ضلوعه، او لو ان بقعاً غير مشعره انتشرت في رأسه او لو غطت وجهه آثار بثور الجدري[١٠] ويحاول عبثاً ان يتجنب رؤية تلك العيوب.. يلجأ إلى اسلوب النعامة.. يدفن رأسه في الأرض.. ولكن.. حتى حينما كان يحاول ذلك بأمل ان ينساها فينال بعض الراحة.. فإن تلك العيوب كانت دوماً، وبرغم هروبه المستمر منها، تسكن رأسه الصغير فتملأه حزناً.. ويعود - بل ومن الاصوب ان أقول - ويستمر القلق المعذب، ويكتشف الحيوان الصغير ان هوة عميقة تكلن ما بين العمل المنجز والهدف المطلوب: «... ان العلاقة بين الجهد العظيم المستلزم والامن الفعلي الذي كان سيوفره، بقدر ما استطيع ان اشعر به او ان استفيد منه، ما كانت ستكون في صالحي.» (٣٤٤). إنه كالكثير من المشاريع التي يعتزم الإنسان ان يقوم بها، فيخطط وينظم.. ثم يشرع بالعمل الفعلي،وإذا بالنتيجة تأتي، في غالب الأحوال، لا كما ينتظر ان تكون.. وانما تعاني دوماً من نقيصة او أخرى. وقد يكون هذا، بالنسبة للبعض، حافزاً جديداً لبذل مزيد من الجهود.. ووضع خطط بديلة من أجل بلوغ درجة اكثر اكتمالاً. وقد يكون العكس بالنسبة لبعض آخر.. كحالك الجحر ، حيث يبدأ الأمل الجميل الذي أمضى حياته وهو يشيده ثلمة.. ثلمة.. بصبر أوصله اعتاب الكهولة - يبدأ، بعد ان تجسد في ما كان يريد، جحراً أميناً، ينهار تحت ضربات القلق والشك المدمر ليعود الى ما لم يكنه ابداً من قبل: إلى لا شيء.. وهكذا يعود بنا كافكا إلى لعبة «الحقيقة - الوهم» فبرغم ان الجحر قائم حقاً.. إلا ان وجوده لا يعني شيئاً ما دام عاجزاً عن توفير الأمن له.. واذن.. فإن وجوده وعدمه سيّان.. ومن هنا فإن حقيقة وجوده هي في الوقت عينه حقيقة لاوجـوده. ويصل سيد الجحر ذروة المأساة حين يدرك ان القلق الذي يسوح في اعماقه وهو داخل بيته او داخل - وطنه - بتعبير ماكس برود، لا يختلف بشيء عن القلق الـذي يلفـه وهو خـارج الجحر: «والآن، فـإن حقيقة الامر - والمرء لا عيناً ترى ذلك في اوقات الخطر العظيم، وهو يفعل ذلك، فقط بجهد عظيم، في اوقات الأخطار المهددة - ان حقيقة الأمر هي ان الجحر يوفر درجة لا بأس بها من الأمان، ولكن ليست كافية بأية حال، إذ هل يكون المرء أبداً متحرراً من القلق وهو داخل الجحر؟» (٣٤٤) ويمضي الحيوان في سبر طبيعة هذا القلق، فيقارن ما بين القلق الداخلي والقلق الخارجي.. وهو إذ يفعل ذلك يتيح لنا ان نتلمس ما يحس به من كبرياء ذاتي حين يتوصل إلى «ان هذا القلق» اي القلق الداخلي، «يختلف عن القلق الإعتيادي بكونه أكثر شموخاً، اكثر غنى من محتواه، وغالباً ما يكون مكبوتاً لأجل طويل.» بل ويبلغ الحيوان ذروة فاجعة أخرى حين يصل إلى ما هو اكثر إيلاماً: «غير انه في تأثيراته التدميرية قد يماثل إلى حد بعيد القلق الذي يثيره الوجود في الخارج» (٣٤٤).

فالمرء قد يستطيع التغلب على اسباب القلق الخارجي.. ان يقمعها فيقضي بذلك على ما تسببه من شروخ نفسية قد تكون مهلكة.. ولكن أنّى له ان يهمد الصراع الذي ينشب في اعماقه لا لشيءالا لأنه لا يستطيع ان يدخل في علاقة سلام مع نفسه؟ ! بل ثمة حقيقة يريد كافكا ان يوصلها إلى مدارك القارئ دون ان يفصح عنها.. فكافكا لا يعني دوماً ما يقوله.. لكنه أبداً يعني ما لا يقوله. تلك الحقيقة هي ان القلق في الداخل أشد تدميراً من القلق في الخارج. وهذه ليست الا نتيجة منطقية لواقع ان تبني بيتاً يقيك من القلق والأذى لكن سرعان ما تكتشف ان القلق داخل هذا البيت يوازي في قوته التدميرية القلق الذي في الخارج. فحين لا يكون هناك جحر.. يستطيع الحيوان ان يتوارى في ثقب في الأرض - أيما ثقب - تحت الأعشاب او الطحلب.. في شق جذع شجرة او.. فالقلق في حالة كهذه يحوم بين ان يكون مبرراً وبين ان لا يكون كذلك.. إذ ان من المحتمل جداً الا يراه او يشعر بوجوده أحد. لكن.. حين يكون له بيت.. حين يكون له عنوان.. فإن من الصعب الا يكون بيته.. عنوانه.. دليلاً يدل الغرباء والاعداء اليه.. بل ان صدفة سيئة قد تضع بيته في طريق عابر سبيل مسالم لا يضمر

شراً لأحد، الا انه ما ان يكتشف بيته حتى يصبح عدواً.. «انني أعيش بسلام في أعمق حجرة في بيتي، فيما قد يقوم العدو ببطء بحفر طريقه خلسة نحوي. انني لا أقول انه يمتلك حاسة شم أفضل مني، ومن المحتمل ان يعرف عني القدر الضئيل نفسه الذي أعرفه أنا عنه. غير ان هناك لصوصاً لا يشبعون، انهم يحفرون في الأرض بشكل اعمى، وان سعة بيتي تمنحهم أمل ان يعثروا صدفة على بعض ممراته المترامية.» (ص /٣٢٦) ثم.. حين يكون هناك بيت، «من يستطيع ان يجعل اعدائي يحيدون عن طريقهم ويرغمهم على ان يقوموا بانعطافة واسعة حول ملكيتي» (ص / ٣٦٥). وهنا يتساءل مالك الجحر بأسى بالغ ومرارة «لِمَ أبقي على هذا الوقت الطويل فقط لأُسلَّم لمثل هذا الرعب الان؟» (١٦١) ويروح حيواننا المسكين يقارن ما بين الهم الذي يعصر قلبه وفكره، والهموم الصغيرة التي كانت.. «وبالمقارنة مع هذا ماذا تعني كل الاخطار التافهة التي قضيت العمر افكر فيها! لقد كنت آمل بوصفي مالكاً للجحر، ان اكون في مركز أقوى من اي عدو قد تدفعه الصدفة إلى الظهور. ولكن تماماً بسبب كوني مالكاً لهذا الصرح العظيم غير المنيع، فانني لا املك، كما هو واضح، أية حماية ضد اي هجوم جدي.» (٣٦٥). ان الرغبة في التملك.. وفرحة التملك قد أوردت المالك الجديد موارد الهلاك.. فالمرء حين لا يملك شيئاً، فإنه لا يثير اهتمام الآخرين ولا يكون موضع حسد غير المالكين.. وعلى خلاف هذا فليس من غير المستبعد ان يصبح ما يملكه المرء هدفاً للإستيلاء والسقوط. وكنتيجة منطقية محتملة جداً يصبح المالك نفسه هدفاً للسقوط.. حيث تنتقل عدوى عدم حصانة الجحر الى

المالك نفسه: «... ان عدم حصانة الجحر جعلتني عديم الحصانة، واي جرح يصيبه يؤلمني كما لو كنت أنا الذي أصابته الضربة». (٣٦٥) واذن.. فالحقيقة التي لا تفصح عنها تلك المعادلة، وانما تدل عليها قياساً هي ان القلق الباطني، لا يوازي القلق الخارجي في قوته التدميرية حسب، وانما هو اشد منه تدميراً وفتكاً. ولعل هذه الأفكار والمخاوف التي ترافق نزعة التملك هي التي حدت بكافكا ان يضع مشروع جمعية العمال غير المالكين الاشتراكي الطوبائي، الذي ينص، من بين ما ينص عليه، على انه لا يمتلك المرء والا يتقبل أية نقود او اشياء ثمينه.. ولا يسمح الا بأبسط الملابس والمواد اللازمة للعمل والكتب.. وعلى ان يعود كل شيء آخر إلى الفقراء.. وان يحصل المرء على ما يقيم أوده فقط، عن طريق العمل.. والا يأكل الا ما هو ضروري حسب.. غذاء أفقر الفقراء.. وان يقيم في مأوى افقر الفقراء.. (س/٨٤ - ٨٥) وكملاحظة عابرة، فان من الواضح ان مشروعاً كهذا يقوم على اساس الزهد في الحياة، لا يتفق باي حال من الاحوال مع المشروع الصهيوني الاستعماري - الاستيطاني، الذي يستهدف اساساً نهب ثروات الآخرين.

ويبحث الحيوان البائس الذي احال تملك الجحر حياته جحيماً، عن الخلاص عبثاً.. اين يستطيع ان يجد سلامه.. ليس هناك غير الجحر والعالم الخارجي.. واذن.. فسوف يهرع الى الخارج.. حيث يجد حريته.. ويندفع في الغابات المكشوفة.. ويمتلىء جسده حيوية وقوة دافقة. وهنا في العراء يستطيع ان يصطاد قوتاً افضل مما لديه في الجحر. ولكن.. برغم هذا.. وبرغم انه يدرك انه سيموت في يوم من الايام، اذ ان احداً ما (وتبدأ كلمة «أحد» بحرف كبير بالانكليزية مما قد تعني الله) - سيوجه دعوة لن يستطيع ان يردها. (٣٣٦).. وبرغم الحرية والحيوية التي نالها اخيراً خارج الجحر، الا انه يظل مسكوناً بهاجس لن يستطيع الخلاص منه مهما حاول ذلك.. انه الجحر. ويعود لجحره حيث يلتقي هناك ما لن يقدر له ان يلتقي في يوم من الايام.. فردوسه وجحيمه. فالجحر ان كان فردوساً فهو ملك خالص له.. وهو ان كان جحيماً.. فهو ايضاً ملك خالص له، ولن يهجره في يوم من الايام.. اذ انه طالما كان «مع جحره» فأي خطر يهمه! «أنت تعود لي، وانا لك، اننا متحدان، فما الذي يمكن ان يؤذينا؟» (٣٤٩). واذن.... فالجحر ليس جحراً بالمعنى الذي نعرفه والذي تحمله هذه الكلمة. انه ليس بيتاً، وما هو «بوطن» طبقاً لما يريده ماكس برود. انه وضع.. حالة نفسية.. احساس. وضع مجرد لا علاقة له بعالم المادة والحدود الجغرافية والممرات والدهاليز.. انه وضع مجرد لا ماديّ معبر عنه في هذه القصة بكيان مادي ذي أبعاد مكانية حسية ملموسة. وهو وضع له بعده التاريخي الذي كان كافكا يبحث عنه ويسعى اليه ويحلم به طيلة حياته منذ ان كان طفلاً. ويبدو هذا المعنى اكثر جلاء حين نعود لليوميات لنجد ان كافكا يعتبر الإنسان وملكيته شيئين وليس شيئاً واحداً، كما هي الحال هنا حيث يتحد الحيوان والجحر: «اذ انه هو وملكيته ليسا شيئاً واحدا، وانما هما أثنان، ومن يدمر الرباط بينهما، يدمره هو ايضا في الوقت عينه»[١]

ولكن.. أنىَّ للحياة ان تعبأ بالامنيات الصغيرة.. بفيض الرؤى التي تعصف بعقل مخلوق تافه صغير لا يملك الا «... ان يختبئ بهدوء في زاوية راضياً بحقيقة انه قادر على التنفس.»؟ (س/١٤٥) ان الحياة قد تبخل عليه بأي شيء الا بالمنغصات ومحفزات الألم. ومع عودته الى الجحر.. يعود الرعب المجنون.. فأي شيء يعكر عليه هذه المرة صفو الحياة.. وحلمه الابدي: الجحر؟

ان كافكا يعاني من حساسية مرهقه (بكسر الهاء) من الاصوات حتى ما كان منها مجرد همس. والجحيم لا يعني فقط نيراناً متأججة تغسل آثام المذنبين.. وانما الاصوات ايضاً يمكن ان تكون الجحيم بعينه. ولن تكون هناك أية مأساة لو أوصد اذنيه بحشوة قطنية وليستحيل الكون كله بعد ذلك صمتاً، مثلما يفعل كارل روسمان بطل رواية اميركا.. ولكن.. أيستطيع ساكن

الجحر ان يملأ اذنيه طيناً ليصد عن أذنيه الصفير الذي يكاد لا يسمع.. والذي انبعث في الجحر كله.. في الانفاق.. في الدهاليز.. في الحجرات الصغيرة وحتى في قلعة الطعام.. يعلو مرة.. ويخفت اخرى.. ينقطع مرة.. ليبعث من جديد؟.. كلا. انه لن يستطيع ان يفعل ذلك. فقد يكون الصوت مقدمة شؤم آتٍ.. قد يكون وراءه عدو قادم.. وما لم يتحرَّ اسبابه.. وما لم يعرف مصدره، فان أحداً لن يستطيع ان يطفئ النار التي ستأكل اعماقه. ولن يشعر بالامان وتظل ثلوج الخوف تجمد حنايا ضلوعه وفؤاده حتى لو كان الامر مجرد اخفاق في اكتشاف أين تدحرجت ذرة رمل هوت من جدار أحد الممرات. بيد ان الحيوان يدرك فوراً ما هو سبب الصوت.. ان دابة صغيرة من تلك التي لم تسحقها انيابه تحفر ممراً لها في باطن الأرض. وسيقوم بعملية انصات دقيقة كي يعثر على مكمنها. وبعد ذلك، ولن يكون ذلك طويلاً، فإن الأمن والسلام لا ريب آتيان. ويروح يحفر انفاقاً جديدة.. ويبحث.. ويبحث ولكن.. دونما جدوى.. واذن.. فانه سيتجاهل الامر.. وقد يتلاشى الصوت بمرور الزمن.. وتميل ارجوحة القلق نحو تخوم الوهم.. وينتابه احساس بشيء من الامان والفرح. ولكن.. أيستطيع ان ينال الامان حقاً وزمن العذاب لا ريب آتٍ.. وينهار أمنه المفترض تحت سياط القلق المتصاعد من جديد.. وتصاب قدراته التي يتطلبها عمله باضطراب (٣٥٣).. وبين ان تكون الحقيقة وان لا تكون، تتمزق الخيوط الفاصلة بين الشك وبين ما كاد ان يكون يقيناً.. فمصدر الصوت قد لا يكون دابة، كما ظن باديءَ الامر.. ربما تعرضت قلعة طعامه لغزوة جموع من الحيوانات الجائعة.. وهو لا يمكن ان يرضى بهذا حتى وان ارتضت به التوراة واباحَته لابناء اسرائيل.. ربما كان هناك حيوان واحد مجهول.. بل لا بد ان يكون هناك قطيع من الحيوانات متجولة حدث ان مرت بطريقي. وهي لا شك تزعجني ولكنها ستتوقف عن ذلك. (١٥٦). بل ربما لم تكن هناك اية حيوانات او دابة.. وانما كان الصفير ناجماً عن مرور الهواء عبر ممراته ودهاليزه.. او انه قد يكون صوت تفجر ماء في اعماق مأواه.. لكنه كان قد جفف كل المياه الجوفية منذ البداية. واذن.. فقد يكون الصفير صوت حيوان ضخم واحد.. الا ان هناك علامات عديدة تفند هذا التصور.. فالصوت يسمع دوماً في كل مكان.. بالقوة نفسها ليل نهار.. وبالرتابة نفسها (٣٦٣). واذن.. لا بد ان يكون هناك حشد من حيوانات تسعى نحو جحره الصغير.. وانها تحفر في الأرض بغير ما هدف معين أو أنها كانت فقط تأكل التراب.

ويكتشف الحيوان المسكين ان كل خططه .. كل تجاربه التنظيمية في الحياة من أجل ان ينظم جحراً يقيه هجوم الأعداء، كانت بعيدة او ربما أقل اهمية بما لا نهاية من الحاجة لأن يكون جحره في وضع يستطيع معه المرء ان يعيش فيه بسلام. (٣٦١). لكنه سرعان ما ينبذ افتراضه الاخير.. اذ أنه لم يَرَ أية حيوانات حينما كان يقوم بحفر انفاقه ودهاليزه.. ويهتز يقينه من جديد فيعود لافتراضه ما قبل الاخير.. واذن.. فان الصوت قد يكون صوت حيوان واحد ضخم الى درجة كبيرة، يقوم بحفر جحر له على مسافة بعيدة.. وان ما يسمعه ما هو الاأصداء ميتة لعملية الحفر.. ويشعر الحيوان الصغير بشيء من الطمأنينة. فالحيوان الضخم بعيد عنه.. وهو غير مهتم بأمره.. وانما هو يحفر جحراً له.. وتبدأ دوامة الاوهام بالتلاشي.. وتجتاز الوقائع الارض الحرام ما بين الحقيقة والوهم لتدخل أخيراً ارض العدم حيث لا شيء هناك.. فالحيوان الضخم لم يكن يلاحقه.. بل وحتى انه لم يكن شاعراً بوجود مالك الجحر الذي كلما فكر اكثر كلما بدا له اكثر احتمالاً ان الحيوان الضخم لم يسمع به، بل وحتى انه لم يسمعه اطلاقاً (٣٧٠ - ٣٧١).

هكذا تتوالى افتراضاته متسارعة.. ما يكاد يتبلور احدها في ذهنه حتى ينهار تحت ثقل افتراض جديد آخر، يبدو معقولاً لحين من الزمان وجيز، فقط ليفقد صفته تلك أمام تصور افتراض اخر اكثر معقولية. وهكذا.. تنهار افتراضاته كلياً الواحد إثر الاخر ويتهدم ما ظنّه حتى ذلك الحين حقائق قائمة.

ان كافكا اذ يكرس جزءاً كبيراً من قصة «الجحر» لهذه المسألة بالذات: الاصوات المجهولة التي تثير القلق والخوف والإزعاج، لا يريد ان يعكس ما كان يشعر به هو شخصياً ازاء الضجيج والاصوات وما تولده من ارهاق فكري ونفسي حسب؛ ولا أحسب أنه كان يريد ان يطرح عبرها أهم وأبرز موضوعة من الموضوعات التي كانت تمزق كافكا: الحقيقة الملغومة بالوهم.. اليقين المبطن بالشك فقط، وانما الذي يبدو لي هو أنه انما كان يريد بها ايضاً ان تكون رمزاً تتكثف داخل اطاره كل ما يعانيه الإنسان وما يتعرض له من فواجع ومنغصات تحيله بؤرة يتجمع فيها الكبت والخوف والاضطهاد والاسى على قصر الحياة التي يعيشها، دون ان يدري احد لماذا ومن أين يأتي والى أين يقود كل ذلك الرعب. وقد لا اكون واهمة ان تصورت ان كافكا أراد أيضاً ان يجسد بهذه الاصوات المبهمة الموجودة - اللاموجودة في آن معاً، دوامة القلق والخوف والتشاؤم التي كانت تعصف بحياته هو، والتي بدأت تأخذ دوراتها المتعاقبة في حياته بعد ان أحالته محوراً تدور حوله دون ملل وعلى مدى السنين التي عاشها منذ ان كان طفلاً صغيراً. فالحيوان يحدثنا عن صوت مبهم انبعث فجأة حينما شرع بحفر جحره.. وكان آنذاك طفلاً صغيراً. ثم توقف الصوت. ومضى الحيوان في تنفيذ خططه.. يحفر الدهاليز والانفاق والممرات.. وتمر السنون.. حتى اذا بلغ مرحلة الكهولة.. ينبعث الصوت الهامس من جديد. ولكن برغم السنين التي مرت بين الصوت الاول حين كان هو طفلاً، وبين الصوت الثاني حين صار كهلاً «... ألا يبدو كما لو انه لم تكن هناك أبداً فترة فاصلة بينهما؟»

(٣٦٨) وهنا.. أليس مبرراً ان نتساءل ان لم يكن الصوت الاول غير انتحال مجسد لحادثة مؤسية تعرض لها كافكا يوم كان طفلاً صغيراً على يدي والده الفظ الفؤاد فحفرت في اعماقه شرخاً غير قابل للردم ، حين ألح الطفل في احدى الليالي الباردة بطلب الماء فما كان من الوالد الا ان انتزعه من سريره الدافئ ورمى به الى شرفة باردة وهو برداء النوم؟! وان الصوت الثاني الذي يمنح نمط الحياة التي عاشها كافكا وعلاقته بالمجتمع عبر أبيه والمدرسة والعمل والخ... كل المشروعية لأن يطرح على لسان حيوانه الصغير ذلك السؤال: « ... ألا يبدو كما لو انه لم تكن هناك أبداً فترة فاصلة بينهما؟ » - أقول: وان هذا الصوت لم يكن الا تجسيداً للمعاناة التي عاشها كافكا والتمزق المدمر بين الحقيقة ونفيها، بين اليقين والشك، بين الوجود واللاوجود وبين ان يكون والا يكون.. ثم.. أيكون مستبعداً الاّ يكون ذلك الصفير الهامس الذي يكاد لا يسمع.. والذي يعلو تارة ثم يخفت.. وينقطع حيناً ليعود بعد حين - أيكون مستبعداً الاّ يكون شيئاً غير ذلك الصفير الذي يصدر عادة عن رئة تأكلها عُصيات صغيرة تشبه ما يدب على الأرض دون ان يُرى؟ !.

لقد نال الحيوان البائس حقه من العذاب داخل جحره وخارج جحره.. مثلما نال الطفل الصغير فرانس عذابه خارج حجرته.. وسيظل ينال مزيداً من العذاب طالما بقي في الخارج حيث البرد والظلمة وليل طويل.. لكن العودة الى الغرفة لن تقلل بحال من الاحوال عذاباته.. فهناك ايضاً مصدر لقلق اشد برودة واشد فتكاً.. انه الأب الصارم الذي ما كان سيفعل لابنه شيئاً - لو انه أفلح في ان يملي عليه ارادته - غير التدمير الكلي، ولاستطاع ان يخلق منه بائعاً صغيراً او كاتب حسابات! ! ولعلنا نجد اصداء هذه الحقيقة في ما يقوله مالك الجحر من ان القوة التدميرية للقلق في الداخل توازي القوة التدميرية للقلق في الخارج. إذ ان كافكا ربما كان قادراً على ان يلغي اسباب القلق الخارجي او بعض اسبابه.. لكن أنّى له ان يفعل ذلك ازاء تمزقه الباطني الذي كان لوالده - الذي كان يكن له، برغم كل شيء، حباً عميقاً - حصة الاسد في خلق اسباب نشوئه ؟!

وعلى أية حال.. ولأن منطق الامور يقود، كما قلت سابقاً، إلى ما يريد كافكا قوله دون الافصاح عنه بالكلمات - ان القوة التدميرية في الداخل اشد منها للقلق في الخارج - فان منطق الامور ايضاً، ونسبية الاشياء كذلك، تقود الحيوان، مالك الجحر، الى اكتشاف الجمال الذي في الخارج: « هدوء عميق، كم هو جميل هنا، هناك في الخارج لا أحد يقلق بضدد جحري، كل شخص يهتم بشؤونه التي لا علاقة لها بي... وما كان مرة مكان خطر اصبح موضع هدوء... » (٣٦٢) و « هناك تحت الطحلب لا يمس المرء اي تحول، ان المرء هناك في سلام... » (٣٦٨). ومثل مالك الجحر الحائر ما بين عالمين.. عامله الخارجي وعالمه الداخلي، يبحث كافكا عن أمنه وسلامه في داره مستقلة عن دار والديه.. وينتقل الى برلين.. ثم يعود الى براغ.. ولكنه ابداً لن يجد سلامه.. ولن يجد أمنه.. وتمر السنون وهو يبحث.. ويبحث.. وعبثاً ينال ما يصبو اليه.. فالتحول كان يحدث في اعماقه المغلقة.. في رئتيه وفي قصبته الهوائية.. فينبعث عنها صفير هو أقرب للصمت منه الى الهمس.. لكن كافكا كان يسمع ذاك الذي هو اقرب الى الصمت منه الى الهمس فيزيده ذاك قناعة ان القوة التدميرية للقلق الباطني أشد منها لتلك التي للقلق في الخارج.. وتحط به ظروف الدهر اخيراً في قرية ريفية تسوراو(Zürau)، لعل نقاء هوائها ينشله من مخالب ذلك العدو الجاثم في اعماقه. لكنها دعوة من أحد ما لا يقوى على ان يردها، ليس لأنه كان يريد ذلك لأنه صار يشعر بسأم من الحياة (٣٣٦)، ولكن لأن الاعداء الباطنيين الذين لا تستطيع ضحاياهم ان تراهم.. قد توالدوا في صدره.. « انهم يأتون... وتسمع خربشات مخالبهم...واذا بك قد ضعت » (٣٢٧). ومهما فعل، فليس بمقدوره ان « يؤجل الساعة » (٣٦٢) .ويظل، لحين من الزمان قصير، مسافراً أبدياً يحمل نعشه فوق كتفيه متنقلاً من مصح الى مستشفى فمصح فمستشفى، علّه يجد ملجأ يقيه شر العدو الباطني الفتاك، لكن عبثاً.. حتى يجيء منقذه أخيراً فيمنحه الخلاص الاخير.. الموت.

ان كافكا عبر سفره الابدي وبحثه اللانهائي لم يكن يسعى الى ما يحاول ماكس برود ان ينتزعه من صفته التجريدية المحض، ويمنحه بعداً مادياً وحدوداً أرضية - جغرافية: وطن. ولو اننا وافقنا ماكس برود على ذلك، فقط لأغراض المناقشة، فان « الوطن ». فالجحر، عمل من اعمال الشعوذة، واي فرد يستطيع لو أراد، ان يدمره كلياً حتى وان تطلّب ذلك قدرات غير اعتيادية. ان كافكا كان يسعى الى بلوغ وضع مجرد من أية مواصفات او ارتباطات يمكن ان تمنحه ابعاداً حسّية ملموسة. كان يسعى الى الوصول الى حال نفسيّة تشعره بالأمن والطمأنينة ليتمكن بالتالي من ان يحقق كينونته من خلال التمسك بخصائصه الذاتية وموهبته التي يحتاج اليها بشدة ليحقق العمل الذي ينتظره (٣٥٣) فهو والجحر كائن واحد « اننا متحدان » (٣٤٩). وهو أيضاً كان يبحث عن الخلاص من العدو الباطني الذي خُلق في صدره.

ومرة أخرى، فإننا لو وافقنا على تفسيرات برود الصهيونية، لأغراض المناقشة أيضاً، فإن كل ما يطرحه كافكا من إفتراضات، وإفتراضتات مضادة تتعلق بالبحث عن الأمن والسلام في الجحر، تقودنا، شاء ذلك ماكس برود أم أبى، إلى أن نبلغ في نهاية القصة وضعاً نجد فيه أن غيوم الشك تتكاثف لتلف في أعماقها الداكنة كل حقيقة مرّت في ذهن حيواننا الصغير.. وإذا بكل شيء وقد صار وهماً يسوح في مخيلة هذا الحيوان البائس.. الأصوات.. العدو أو الأعداء.. وما كان مرة

مصدر خطر أصبح موضع أمن فيما غدا ما كان مصدر أمن مصدر خطر مدمر.. والعدو قد يكون من جنسي أنا.. وأعداء داخليين يخلقون في الأعماق ولا يأتون من الخارج.. والبيت يصبح بيتهم لا بيته هو.. وهكذا... بل وما يكتسب هنا أهمية فائقة أن مالك الجحر لن يسمح لوغد قذر، حتى لو كان ناسكاً أو محب سلام أو مخمن جحور أن يسكن بيتاً لم يبنه.. ليس هذا حسب.. بل هو يرفض أن يسكن بيتاً يعود لغيره: « فكرت ونفسي، ربما كنت في جحر شخص آخر، وإن مالكه يقوم الآن بحفر طريقه نحوي. فلو ثبت أن ذلك الإفتراض كان صحيحاً، فإنني سأغادره، إذ أنه لم تكن لدي أية رغبة للفتح أو سفك الدماء، ولبدأت البناء في موضع آخر ». (٣٦٧).

وإذن.. وبعد هذه الرحلة في الممرات الضيقة لذلك العالم البالغ التعقيد الذي إسمه كافكا.. ألا نكون على حق حين نفترض واحداً من إثنين: أما أن ماكس برود لم يفهم كافكا أبداً، كما قال كافكا نفسه مرة عنه؛ أو أنه لم يكن يريد أن يفهم كافكا على حقيقته. وإلا كيف يستطيع التحدث عن « وطن » لم يُبقِ منه كافكا بعد أن دمره بمعاول الخوف والقلق، غير نثار أوهام تعبث بها رياح الشك القاتمة؟!

بغداد

******

عَن دَار الآفَاق الجَدِيدَة
صَدَرَ حَدِيثًا

هداية الرحمن لالفاظ وآيات القرآن — د. محمد صالح البنداق
معجم مفهرس لالفاظ القرآن — مجلد فاخر

معنى المأساة في الرواية العربية — للناقد الدكتور غالي شكري
١٥ ل.ل

أطفال بور سعيد يهاجرون الى اول ماي — عبد العال رزاقي
٧ ل.ل

لا تحن رأسك للعاصفة — اسراء محمد عبد القادر
٧ ل.ل

ليس الحب يكفي — غالب حمزة ابو الفرج
١٠ ل.ل

القطار والحبل — السيد عبد الرؤف
١٠ ل.ل